﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ [يوسف: 66]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مناسبةِ الآية لِما قبْلَها وجهان: **الأوّلُ:** لم يزالوا يُجادلون أباهم جِدالَ طلبٍ، واجتهدوا في ذلك حتّى أقنعوهُ بلُزومِ أوِ استحسان إرسالِ بنيامين معهم، فسمحَ لهم بإنفاذ بنيامين معهم، لكنْ بشروطٍ سلَكَ فيها معهم سبيلَ الاحتياطِ فقال: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

إسنادُ الحفْظِ للهِ لم يُثْنِ يعقوبَ عن أخذِ المواثيقِ على أبنائِه

والثّاني: أنّ يعقوبَ لمّا قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أبدَى عدمَ ثقتِه بحفْظِهم أوّلًا، وعدمَ الثّقةِ بما في نفوسهم ثانيًا، وبالنّسبة للأوّل تركَ الأمرَ للّه فهو خيرٌ حافظًا، وأخذَ موثِقًا للأمر الثّاني فقال: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا﴾، وذلك في أثناء مبادلةِ القولِ مع أبيهم بشأن أخيهم، وجدوا بضاعتَهم في رحالِهم[1] بعدَ إلحاحِهم وتحريضِهم ومحاورتِهم لأبيهم في إرسال بنيامين معهم، لم يستجبْ لهم يعقوبُ إلّا على كُرهٍ منه، واشترطَ لهذه الاستجابةِ ما حكاه القرآنُ في قوله: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤۡتُونِ﴾: أصلُ (أتو) يدلُّ على مَجيءِ الشَّيْءِ وإصْحابِه وطاعَتِه، والأَتْوُ: الاستقامةُ في السَّيرِ والسُّرْعةِ، والإيتاءُ: الإعْطاءُ[3]،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3839.
(2) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتو).

والإِتْيان: المَجيء، وآتَاه الشَّيْءَ؛ أَيْ: أَعطاهُ إِيَّاه، وآتَاهُ على الأَمْرِ: طاوَعَه، والمُؤاتاةُ: حُسْنُ المُطاوَعةِ، وآتَيْتُه على ذلك الأَمْر مُؤاتاةً إِذا وافَقْتَه وطاوَعْتَه[1]. ومعنى ﴿تُؤْتُونِ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أيْ: حتّى تُعطونِ موثقًا[2].

2) ﴿مَوْثِقًا﴾: أصلُ (وثق) يدلُّ على عقدٍ وإحكام، ووَثَّقْتُ الشَّيءَ: أَحْكَمْتُهُ، والمِيثاقُ: العَهْدُ المُحْكَمُ[3]، والوَثاقة: مَصْدَرُ الشَّيْءِ الوَثيق المُحْكَم، والحَبْلُ أَوِ الشَّيْءُ الَّذي يُوثَق بِهِ وِثاقٌ، وأَوْثَقهُ في الوَثاقِ؛ أَيْ: شَدَّهُ، والوَثِيقةُ: الإِحكامُ في الأَمرِ، والوَثيقُ: الشَّيْءُ المُحْكم، والمَوْثِقُ: العَهْدُ[4]، والمِيثاقُ: عقدٌ مُؤَكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، والمَوْثِقُ الاسمُ منه، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[5]. ومعنى ﴿مَوْثِقًا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أيْ: بمعنى الميثاقِ، وهو ما يُوثَقُ به من يمينٍ وعهد[6].

3) ﴿يُحَاطَ﴾: أصلُ (حوط) هو الشَّيْءُ يُطيفُ بِالشَّيْءِ، فالحَوْطُ مِنْ حاطَهُ حَوْطًا[7]، يُقال: حاطَهُ حيطةً إذا تعاهدَه، واحتاطتِ الخيلُ بفلانٍ وأحاطتْ به؛ أيْ: أحدقتْ، وكلُّ مَن أَحْرَزَ شيئًا كلَّه وبلغ عِلْمُه أقصاه فقد أحاطَ به، وسُمِّيَ الحائِطُ، لأنّه يَحوطُ ما فيه[8]، وأَحاطَ بِهِ الأَمْرُ، إِذا أَخَذَه من جَميعِ جَوانِبِه فَلم يَكُنْ مِنْهُ مَخْلَصٌ، ويُقال: أُحيطَ بفلانٍ، إِذا أُتِيَ عَلَيْهِ، أَو دَنا هَلاكُه، وهو مَجازٌ[9]. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أَيْ: تؤْخَذوا مِنْ جَوانِبِكم[10]، أو: إلّا أنْ تهلكوا جميعًا، أو: إلّا أنْ تُغلبوا حتّى لا تُطيقوا ذلك[11]؛ أيْ: تَعُمُّكُمُ الغَلَبَةُ مِنْ جميعِ الجِهَاتِ حتّى لا يَكُونَ لكم حِيلَةٌ ولا وَجْهُ تَخَلُّصٍ[12].

4) ﴿وَكِيلٌ﴾: أَصْلُ (وكل) يدلُّ على اعْتِمادِ غيْرِكَ على أَمْرِكَ، والتَّوَكُّلُ منهُ، وهو

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/163، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وثق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وثق).
(5) الرّاغب، المُفردات: (وثق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/163.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(8) الخليل، العين: (حوط).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(10) الهرويّ، الغريبيْن في القرآن والحديث: 2/511.
(11) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(12) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/297.

إظْهارُ الْعَجْزِ في الْأَمْرِ والاعْتِمادُ على غَيْرِكَ، وسُمِّيَ الوَكِيلُ، لأَنَّهُ يوكَلُ إليْهِ الأَمْرُ[1]، ووَكَّلَهُ في الأَمْرِ تَوْكِيلًا: فَوَّضَهُ إِلَيْهِ، والوَكِيلُ في أَسْماءِ اللّه تعالى هو المُقيمُ الكَفيلُ بِأَرْزاقِ العِباد، والوكيل أيضًا: الكافي والحافظُ والكَفيل[2]، والوَكيلُ أعمُّ؛ لأنّ كلّ كفيلٍ وَكيلٌ، وليس كلُّ وَكيلٍ كفيلًا[3]. ومعنى ﴿وَكِيلٌ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أيْ: شاهِدٌ، وقيّمٌ وحافظٌ وضامنٌ[4]، ومُطّلِعٌ ورقيبٌ، فإنّ الموكّل بالأمرِ يراقبهُ ويحفظُه[5].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

عـلّـقَ يعـقـوبُ إرسـالَ بنيامين على أخذِ العهدِ الـغـلـيـظ من أولاده

قال لهم يعقوبُ: لن أترُكَه يذهَبُ معكم حتَّى تتعَهَّدوا وتحلِفوا لي باللّه أنْ ترُدُّوه إليَّ، إلَّا أنْ تُغْلَبوا جميعُكم بأمرٍ لا قِبَلَ لكم به، فلا تقْدِروا على تخليصِ أخيكم ورَدِّه معكم، فلَمَّا أعطَوه عهدَ اللّه على ما طلَبَ، قال يعقوبُ: اللّه على ما نقولُ وكيلٌ، تكفينا شَهادتُه علينا، وحِفظُه لنا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الآيةِ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ﴾ ودَلالتُه:

جِـــوارٌ قـــرآنيٌّ جـاءَ فـيـهِ قـولُ يعقوبَ، جوابًا قاطعًا على طلَبِ أبنائِه

جاءت جملةُ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جوابًا على إلحاحِهم على أبيهم بتنفيذِ طلَبِهم؛ وهو إرسالُ بنيامين معهم بقولهم: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ على طريقةِ المُحاوَراتِ؛ أيْ: فَصَلَ الجوابَ، ولم يعطفْ بالواو؛ كراهيةَ تَكريرِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (وكل).
(3) الرّاغب، المُفردات: (وكل).
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/261، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(5) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/14.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/236، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.

العاطفِ بتكريرِ أفعالِ القولِ، فإنّ المحاورةَ تقتضي الإعادةَ في الغالبِ، فَطَرَدوا البابَ فحذَفُوا العاطِفَ في الجميعِ، وهو كثيرٌ في التّنزيل[1]. والمعنى أنّ يعقوبَ لم يجدْ بُدًّا منَ التّسليمِ بالأمرِ الواقعِ بعدَ أنْ جادلهُ أبناؤهُ جِدالَ طلبٍ، وأخذوا عليه كلَّ سبيلٍ، فلم يجدْ بُدًّا للتّخلّصِ من هذا الطّلبِ الّذي طلبوه، وإنّه لكي يقيمَ لنفسه عذرًا بين يدي تلكَ المخاوفِ الّتي يتخوّفُها على بِنيامين، دفعَهم عنه مُجيبًا بقوله: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾، هكذا بدأهم بهذا الحُكم القاطعِ كما بدأوه هم بقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: 63]، ثمّ جاءَهم مُستثنيًا هذا الحُكمَ بقوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

دَلالةُ تأكيد النّفي بـ ﴿لَنْ﴾ النّفْي:

﴿لَنْ﴾ حرفُ نفْيٍ تَنفي المستقبلَ القريبَ والبعيدَ معًا؛ والمعنى: لنْ أرسلَه، وإنّ إرسالَه يُنافي حالي، وقد رأيتُ منكم ما رأيتُ حتّى تُؤْتوني مَوْثِقًا مِنَ الله؛ أيْ: حتّى تُعطوني ما أتوثّق به من عند الله[3]، وفي هذا التّعبير تأكيدٌ على قطعيّةِ عدمِ إرسالِه معهم إنْ لم يأتوهُ بالعهودِ الموثّقةِ الّتي تبدّدُ مخاوفَه.

بدأهم بحُكمٍ قاطعٍ بعدمِ إرسالِه إنْ لم يَأْتوهُ بما يُبدّد مخاوفَه

سِرُّ التّعبيرِ بالإرسالِ:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿أُرْسِلَهُۥ﴾ في: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ دون (أبعثَه)؛ لكونهِ أكثرَ مناسبةً لحالِ يعقوبَ ﷺ، فإنّه كان يُمسكُ بِنيامين كما كانَ يفعلُ مع يوسُفَ، بل إنّ إمساكَه لبِنيامين وحبْسَه عنهم أصبحَ أشدَّ بعدَ الّذي حصلَ ليوسفَ عندما أرسلهُ معهم؛ إذ إنّ الإرسالَ في المحبوسِ إطلاقُه[4]، بخلافِ ما لو عبّرَ البيانُ الإلهيُّ

لا يُلدغُ المؤمنُ من جُحرٍ مرّتين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/401.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/18.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/384.
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعيُن، ص: 152.

بـ (أبعثَه) الّذي يدلُّ على الإثارةِ والاندفاع[1]، يُقال انبعثَ الشّيءُ: اندفعَ، وبعثهُ من نومه: أيقظهُ وأهَبَّه، والبعثُ: النّشورُ[2]، وعليه فإنّه في حال التّعبير بالبعث قد يُفهمُ أنّ يعقوبَ هو الّذي يريدُ أنْ يدفعَه، وهذا يخالفُ حالَ يعقوبَ عليه السلام من إمساكهِ لبنيامين.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أُرْسِلَهُۥ﴾:

قـرارُ يعقوبَ قاطعٌ ومُستمرٌّ، حتّى يَحلِفوا الأَيمانَ العظيمةَ

استعملَ القرآنُ الكريمُ صيغةَ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾؛ للدّلالةِ على نفْيِ حدوثِ إرسالِ يعقوبَ لبنيامين مع إخوتِه، وعلى استمرارِه في قرارِهِ القاطعِ بعدمِ إرسالِه حتّى يأتوا بالعهودِ والمواثيقِ، وقد أُكّد هذا الاستمرارُ بالحرفِ ﴿لَنْ﴾ الّتي تفيدُ النّفيَ في المستقبل القريبِ والبعيدِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مُضمَرًا في ﴿أُرْسِلَهُۥ﴾:

الإضمارُ أبلغُ اختصارًا وموافقةً للسّياقِ

أضمرَ البيانُ الإلهيُّ المفعولَ به في الفعل ﴿أُرْسِلَهُۥ﴾؛ إذ جاءَ به ضميرًا غائبًا (الهاء)، وعدلَ بذلك عنِ الإظهارِ، فلم يَقلْ: (لنْ أرسلَ أخاكم معكم، أو: لنْ أرسلَ بنيامين معكم)؛ لأمورٍ:

الأوّلُ: اختصارًا؛ لأنّ سياقَ الآياتِ وموضوعَها يتحدّثُ عن أخيهم، فقد سبقَ ذِكرُه في طلبهم ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾، ولذا احتُرزَ عنِ الزّيادةِ بالتّصريحِ به.

الثّاني: توافقًا مع عادةِ القرآنِ بعدمِ التّصريحِ بأسماءِ غيرِ الأنبياءِ والرّسلِ، ومَنْ تدورُ عليهم كلُّ أحداثِ القصّة.

الثّالث: توبيخًا وعتبًا عليهم في التّعبيرِ بالضّمير دونَ قوله (أخاكم)؛ أيْ إنّهم لا يستحقّون هذه الرّابطةَ؛ لأنّهم لم يكونوا أهلًا لأداءِ حقِّها مع أخيهم يوسفَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(2) ابن سِيده، المُحكَم والمُحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

الرّابع: مناسبةً للسّياقِ الّذي جاءَ بحُكمٍ قاطعٍ يشترطُ فيه المواثيقَ والعهودَ، والأصلُ أنّ ذلك لا يكونُ بحقِّ إخوةٍ للحفاظِ على أخيهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالظّرفَ المضافِ ﴿مَعَكُمْ﴾:

في التّأكيدِ بالظّرفيّة إشارةٌ إلى عدَمِ ائتمانِه معيَّنَهم

ذكَرَ البيانُ القرآنيُّ الظّرفَ المضافَ (مَعَكُمْ) في قوله تعالى: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾، علمًا بأنّه قد سبقَ ذِكرُه في طلبِهم ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: 63]؛ تأكيدًا على عدمِ ائتمانِه لمعيّتِهم، وعدمِ ثقتِه بهم، وتعليلًا لِما طلبَهُ من مواثيقَ؛ أيْ: "لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ إذْ رأيتُ منكم ما رأيتُ"[1]، ذلك لأنّ الظّرفَ ﴿مَعَكُمْ﴾ لم يأتِ بمكانٍ جديدٍ؛ إذ قد سبقَ ذِكرُ المكان ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ﴾ [يوسف: 63]، فالتّعبيرُ به أفادَ توكيدَ معنى عاملِه ﴿أُرْسِلَهُۥ﴾ الدّالِّ على عدمِ الإرسالِ معهم، وكذلك تذكّرُ وتصوّرُ تلك المعيّةَ في مُخيّلتهم حين أُرسلَ معهم أخاهم يوسفَ بما يكون أدْعى لحرصِهم على بِنيامين، وعدمِ التّفريطِ به كما فرّطوا بأخيه يوسفَ عليه السلام من قبلُ.

دلالة ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾:

إتمامُ المَوثِقِ الّذي لا ينتهي أثرُهُ إلّا بعدَ عودةِ بِنيامين

تنصرفُ ﴿حَتَّىٰ﴾ مع الفعل المضارعِ إلى المستقبلِ، وتأتي غالبًا لإفادةِ بلوغِ الغايةِ، أو لتعليلِ الحدَثِ، وقد جاءتْ هنا في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ للغاية الدّالّةِ على المستقبل؛ أيْ دلّ التّركيبُ الفعليُّ (حتّى والفعلُ المضارعُ) ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ على المستقبل، والمعنى: لن أرسلَه معكم حتّى تحلفوا بالعهودِ والمواثيقِ[2]؛ أيْ: حتّى يتحقّقَ إتمامُ الموثِقِ، وهو العهدُ المُؤكّدُ باليمين؛ أي: القَسَم، وينتهي بعودةِ أخيهم بِنيامين بعد أنْ يرسلَهُ معهم، فهو غيرُ أبديٍّ وغيرُ دائمٍ؛ لكي يأمنَ مكرَهم وألّا يفعلوا به كما فعلوا بيوسفَ.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/170.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/399.

دَلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الإتيانِ ﴿تُؤْتُونِ﴾:

في التّعبيرِ بإيتاءِ اليَمينِ، تفخيمٌ لـه وتـأكـيـدٌ لِصدْقِهِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بفعل الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دونَ قوله: (حتّى تحلفوا أو تُقسموا)؛ لأنَّ الإيتاءَ والإعطاءَ وما يُرادُ بهما اشتهرَ في إنشاءِ الحلِفِ؛ وذلك ليَطْمَئِنَّ بصدْقِ الحالِفِ غَيْرُهُ، وهو المَحْلوفُ لَهُ، وفي حديث الحشْرِ: «فَيُعْطِي اللهَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهُ»[1]، كما أطلقَ فعلَ الأخذ على تلقّي المَحْلوفِ لَهُ لِلْحَلِفِ، قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النّساء: 21]، ولعلَّ سببَ إطلاقِ فعلِ الإعطاءِ أوِ الإتيانِ أنّ الحالفَ كان في العصورِ القديمةِ يُعطي المحلوفَ له شيئًا تذكرةً لليمين مثل سوْطِهِ أو خاتَمِه[2]، إضافةً إلى أنّ اختيارَ هذا اللّفظ يتناسبُ مع ما سيأتي بعد ذلك في السّياق نفسِه من مفرداتٍ: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾، و﴿ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تُؤْتُونِ﴾:

مَـوْثِـقٌ مُتجدّد في كـلّ زمـانٍ ومكانٍ، لا يَنتهي إلّا بانتهاءِ غايتِه

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالمضارع في قوله: ﴿تُؤْتُونِ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ العهد الّذي سيأخذهُ عليهم هو عهدٌ متجدِّدٌ في كلّ زمان ومكانٍ لا ينتهي إلّا بانتهاءِ غايتِه؛ أيْ: بعودةِ أخيهم بِنيامين، وللدّلالةِ على تصويرِ الحركةِ والسّعيِ منهم للإيتاءِ بهذا العهد المُؤكَّدِ باليمين، وذلك تأكيدًا على أهميّتِه عنده.

سِرُّ إسنادِ الفعْلِ إلى واو الجماعةِ في ﴿تُؤْتُونِ﴾:

في العهدِ المُوثّق مـنَ الـجـمـاعـةِ، زيـادةُ احـتـيـاطٍ وإشـارةُ صـدْقٍ واطْمئنانٍ

أسندَ القرآنُ الفعلَ إلى واو الجماعةِ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ زيادةً في توثيقِ العهدِ بألا يكونَ من بعضِهم، بل من جميعِهم، وزيادةً في تأكُّدِهِ من صدقِهم؛ إذ إنّهم في حالةِ عدمِ صدْقِهم سيظهرُ التّردّدُ من بعضِهم بسببِ الخوفِ منَ العهدِ المُوثَّقِ

(1) صحيح البخاريّ، كتاب: الرّقاق، باب: باب الصّراط جسر جهنّم، الحديث رقم: (6573).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/18.

منَ اللّه سُبحانه، والمعنى: لنْ أرسلَهُ معكم حتّى توثّقوا كلُّكم معي عهدًا وميثاقًا تُشهدونَ اللّه عليه في أنْ تُعيدوا بِنيامين إليّ، إلّا إنْ أحاطَ بكم مكروهٌ، فغلبَكُم عليه[1].

الغرَضُ من تنكيرِ المفعولِ به ﴿مَوْثِقًا﴾:

المؤثِقُ الّذي عليهِ شـهـادةُ الـلـه العظيمِ، مَوْثِقٌ عظيمُ الشّأنِ

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿مَوْثِقًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ معنى التّفخيم والتّعظيم لشأنِ هذا العهد المَوثِق؛ إذ هو في حقيقتهِ عشرةُ مواثيقَ ربّانيّةٍ من اللّه، والمعنى: لن أرسلَ بِنيامين معكم حتّى تُعطوني عهدًا مؤكَّدًا بإشهادِ اللّه وقسَمِه لتأتنّي به، ولترجعنّه إليّ[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِّنَ﴾ في ﴿مِّنَ ٱللَّـهِ﴾:

العـهـدُ المُـوثّـقُ بـإشـهـادِ الـلـه والـقَـسـمِ بـه، عهدٌ ربّانيٌّ مُؤكَّدٌ

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للابتداء؛ أيْ: تؤتوني موثقًا صادرًا منَ اللّه تعالى، ومعنى ذلك أنْ يَجعلوا اللّه شاهدًا عليهم فيما وعَدوا به بأنْ يحلِفوا باللّه، فتصير شهادةُ اللّه عليهم كتوثيقٍ صادرٍ منَ اللّه تعالى بهذا الاعتبار، وذلك أنْ يقولوا: لك ميثاقُ اللّه، أو عهدُ اللّه أو نحوُ ذلك، وبهذا يُضافُ الميثاقُ والعهدُ إلى اسْمِ الجلالة، فكأنَّ الحالفَ استودعَ اللّه ما بهِ التّوثّقُ للمحلوفِ له[3]، والمعنى: "﴿مِّنَ ٱللَّـهِ﴾؛ أيْ: عهدًا موثوقًا به؛ بسبب تأكُّدِ الشّهادةِ منَ اللّه، أو بسببِ القسَمِ باللّه عليه"[4]، "ليكون شهيدًا عليكم ومُنتقمًا منكم إنْ لم تكونوا أوفياءَ"[5].

سَرُّ التّعبيرِ بلفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّـهِ﴾:

القَسَمُ بالملكِ الأعْظمِ قسَمٌ عظيمٌ، والعهدُ المُؤكَّدُ بشهادةِ اللهِ عهدٌ مُقدَّسٌ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الميثاقَ والعهدَ إلى اسْمِ الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون غيرِه منَ الأسماءِ الحُسنى؛

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/18.
(2) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/19.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/149.
(5) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/355.

لأنّ اسْمَ (اللّه) هو اسمُ الذّاتِ الّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال، وفي هذا زيادةُ تعظيمٍ لهذا الميثاقِ، والمعنى: حتّى تؤتون موثقًا منَ "الملكِ الأعْظمِ بأيمانٍ عظيمةٍ"[1].

غرَضُ حذْفِ القَسَمِ وتقديرُه:

إذا تساوى الذِّكرُ والحذْفُ، فالحذفُ أبلغُ

القَسَمُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿مَوْثِقًا﴾، و"المُرادُ بالمَوثِقِ من اللّه: اليمينُ، فتقديرُه: حتّى تحلفوا باللّه لتأتُنّني به"[2]، إلّا في حالٍ واحدةٍ؛ وهي: أَن يُحَاطَ بكم. والغرَضُ من حذفِ القسَمِ هو الاختصارُ؛ إذِ القسمُ مفهومٌ منَ السّياق، وهذا الاختصارُ أبلغُ منَ الزّيادة، ويُسهمُ في رسْمِ صورةِ المشهدِ في المُخيّلةِ.

سِرُّ تأكيد جوابِ القسَم ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾:

بيانُ المؤكِّداتِ في جوابِ القسَمِ، بإعادةِ أخيهم إلّا أنْ يَهلكوا جميعًا

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ القَسَمِ المُقدَّر ﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ بمؤكِّدَيْن؛ هما: لامُ التّوكيدِ الواقعةُ في الجواب، والنّونُ المشدّدةُ (نونُ التّوكيدِ الثّقيلةُ)؛ وذلك لزيادةِ التّوكيد؛ والمعنى: حتّى تحلفوا لتُرجعُنَّه إليَّ سالمًا، إلّا في حالةٍ واحدةٍ، والسّرُّ في هذا التّوكيد: أنّ الجميعَ مُلزمونَ بالحفاظِ على بِنيامين، لذلك قال البقاعيّ شارحًا توكيدَ الآية بذكْرِ التّوكيد المعنويِّ: (كلّكم) فقال: "﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ كلُّكم ﴿بِهِۦٓ﴾"[3].

دَلالةُ الاستثناءِ في ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾:

في الاستثناءِ عمومُ وجوهِ، شدّة احتياطِ يعقوبَ

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ يحتملُ عدة أوجُه:

الأوّلُ: استثناءٌ منقطعٌ، قالهُ أبو البقاءِ، وتقديرُ الكلام: لكنْ إذا أُحيطَ بكم خرجتُمْ من عَتبي وغضبي عليكم إنْ لم تَأْتُوني به؛ لوضوحِ عُذْرِكُم[4].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/155.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/155.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/149 - 150.

الثّاني: استثناءٌ متّصلٌ مفرغٌ منَ المفعولِ له العامِّ؛ وهو قوله: ﴿أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾، وبذلك يكون الكلامُ المُثبتُ ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ في معنى النَّفي، والمعنى: لا تَمْتنِعُون منَ الإتيانِ به إلّا للإحاطةِ بكم، أو لا تَمْتنِعُون منه لعلّةٍ واحدةٍ وهي ﴿أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾، فهو استثناءٌ من أعمِّ العامِّ في المفعولِ له[1].

الثّالث: استثناءٌ من أعمَّ العامِّ منَ الأحوال، قال أبو البقاء: تقديرُه: لتَأْتُنَّنِي به على كلِّ حالٍ إلّا في حالٍ؛ أيْ: حال الإحاطةِ بكم[2]؛ أي: المصدرُ المُنسبكُ من أنْ مع الفعلِ ﴿يُحَاطَ﴾ في موضع الحالِ، وهو كالإخبار بالمصدر فتأويلُه: إلّا محاطًا بكم[3].

الرّابع: أنَّه استثناءٌ من أعمَّ العامِّ في الأزمان، والتّقديرُ: لتَأْتُنَّنِي به في كلِّ وقتٍ إلّا في وقتِ الإحاطة بكم[4].

وفي كلّ الحالاتِ الاستثناءُ هنا "لفظٌ عامٌّ لجميعِ وجوهِ الغلبةِ والقسرِ، والمعنى: تعمُّكم الغلبةُ من جميعِ الجهاتِ حتّى لا تكونَ لكم حيلةٌ ولا وجهُ تخلُّصٍ، وقال مجاهدٌ: المعنى: إلّا أنْ تهلَكوا جميعًا، وقال قتادةُ: إلّا ألّا تُطيقوا ذلك"[5]. وفي هذا الإلزام دلالةٌ على شدّةِ احتياطِ يعقوبَ في هذه المرّة لا كالسّابقةِ وتحفيزٌ من يعقوبَ لهم على أخذ كلِّ أسبابِ الحَيطة والحذرِ والحفْظِ، وتأكُّدٌ وزيادةُ اطمئنانٍ منه على صدْقِ وحسنِ نيّتِهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالإحاطةِ في ﴿يُحَاطَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بمادّة الإحاطةِ دونَ غيرِها، فلم يَقُلْ مثلًا: إلّا أنْ تُحاصَروا؛ لاتّساعِ دلالةِ مادّةِ الإحاطةِ الّتي تعني: عدمَ وجودِ

عُذرُهمُ الوحيدُ إحـاطـةٌ بهـم ليسَ لهم منها أيُّ نجاةٍ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/150، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/19.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/150، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/19.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/150.
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/261.

أيِّ مَنفذٍ للتّخلّص؛ ولذلك يقول سُبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: 19]؛ أيْ: ليس هناك منفذٌ يُفلتون منه[1]، إذ أصلُ مادّةِ (حوط) في اللّغة يدلُّ على الشَّيْءِ يُطيفُ بِالشَّيْءِ، ويُقال: أحاطتِ الخيلُ بفلانٍ: أيْ: أحدقتْ[2]، والعربُ تقول: أُحيطَ بفلانٍ إذا أُتِيَ عليه، أو دَنا هَلاكُه[3].

كما أنّ مُفردةَ الإحاطة مرتبطةٌ في الوِجدان العربيّ بأجواء الحروبِ، فأصلُها "أنّ العدوّ إذا أحاطَ بموضعٍ فقد هلكَ أهلُه"[4]، و"العربُ يقولون: أحاطَ العدوُّ بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبَها؛ لأنّ الإحاطةَ بها تدلُّ على الإحداقِ بها وتطويقِها"[5]. وهذه المعاني الّتي اشتملتْ عليها مُفردةُ ﴿يُحَاطَ﴾ تتناسبُ مع السّياقِ وحرْصِ يعقوبَ على ابنه بِنيامين، وعدمِ قبولِ أيِّ عذرٍ من أبنائه إذا لم يأتوا بأخيهم بعد أخذ الميثاقَ منهم إلّا إنْ حصلَ ما هو فوقَ طاقتِهم أو هلَكوا جميعًا، والمعنى: لتأتنّني به إلّا إذا أحاطَ بكمُ العدوُّ من كلّ ناحيةٍ وطوّقَكُم وأخذَكم وأهلكَكُم كلَّكم ولم يسلمْ منكم أحدٌ؛ أيْ: تَعُمُّكُمُ الغَلَبةُ مِنْ جميعِ الجِهاتِ حتّى لا يَكونَ لكم حيلَةٌ ولا وَجْهُ تَخَلُّصٍ[6].

سِرُّ التّعبيرِ بالفعْلِ المبنيِّ للمفعول ﴿يُحَاطَ﴾:

افتراضُ الهلاكِ المحيطِ بهم، عامًّا لا يسلمُ منهُ أحدٌ

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ بالمبنيِّ للمفعول في قوله: ﴿يُحَاطَ﴾؛ أيْ: صرفَ الحدثَ عمدًا عن مُحدِثِه ولم يُسندْه إليه، فلم يَقُل: إلّا أن يُحيط بكمُ العدوُّ؛ تركيزًا للانتباه على الحدث ذاتِه، وحصر الوعيِ فيه، فلا يتوزّعُ في غيره، وهو فعلُ الإحاطةِ بالشّيء من كلّ الجوانبِ،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5852.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوط)، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/151.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/325.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/137.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/297.

وكذلك لإفادة العُموم؛ إذ لو أتى بالمَبنيِّ للمعلوم لقيّده بفاعلٍ واحدٍ ولاقتصرَ عليه، ولكنّه بذلك احتملَ الكثيرَ منَ المعاني منها: إلّا أنْ تُحاصَروا وتُغلبوا على أمركم بعدوٍ، أو بلاءٍ يُحيطُ بكم فتهلَكوا دونَه، فلا تستطيعون الإتيانَ به مجتمِعين ولا مُتفرِّقين، أو تُمنَعوا منَ النّجاة بشتّى السُّبلِ، أو تُغلَبوا، أو تَهلكوا جميعًا بقضاءٍ وقدرٍ منَ الله تعالى ولا يسلمَ منكم أحدٌ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِكُمۡ﴾:

﴿بِكُمۡ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعلّقٌ بالفعل ﴿يُحَاطَ﴾ الّذي يعني الهلاكَ أوِ الغلبةَ والقهرَ المانعَ للقُدرة، وفي كونِ الجارّ هو حرف الباء الّذي يعني الإلصاقَ، وكونِ المجرور ضميرَ مخاطَبٍ للجمعِ المذكّرِ؛ أيْ جَمْع المُخاطَبينَ ﴿بِكُمۡ﴾؛ دلالةٌ على التصاقِ الهلاكِ أوِ الغلبةِ بهم عن آخرهم؛ والمعنى: إلّا أنْ يلتصقَ الهلاكُ بكم، "فتهلَكوا من عند آخرِكم"[1]، أو تلتصقَ بكمُ الغَلَبةُ والقهرُ؛ أيْ: "إلّا أن تَصيرُوا مَغلوبين مَقْهورين، لا تَقدرون على الرّجوع"[2]. إضافةً إلى ما في التّعبيرِ بالباءِ وضميرِ جمْعِ المخاطَبين ﴿بِكُمۡ﴾ اللّذَين يدلّان على الالتصاقِ والإحاطةِ منَ المناسبةِ لفعْلِ الإحاطةِ الواردِ في الآية ﴿يُحَاطَ﴾.

لا عـذرَ لهم إلّا إذا التَصقَ الـهـلاكُ بهم، فأهْلَكهم أو غلَبهم، وهذا نادرٌ جدًّا

بَلاغةُ أسلوبِ الكنايةِ في ﴿يُحَاطَ بِكُمۡ﴾:

الكنايةُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ كنايةُ النّسبةِ؛ وهي: "عُدولٌ بالكلامِ عنِ التّعبيرِ المباشرِ، وذلك عن طريقِ إثباتِ الصّفةِ لشيءٍ يتعلّقُ بمنْ نريدُ أن نُثبتَها له"[3]. فقد كنّى البيانُ القرآنيُّ بالإحاطةِ عن أخذِ المسالكِ كلِّها عليهم؛ أي: الأخذُ بأسرٍ أو هلاكٍ ممّا هو خارجٌ عن قُدرتِهم، وأصلُ الإحاطة إحاطةُ الجيشِ في

الإحاطةُ تَستلزمُ هلاكَهم، بما لا يَقدرونَ على ردِّه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/155.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/151.
(3) شعيب، المُيسّر في البلاغة العربيّة، ص: 116.

الحرب، فاستُعملَ ذلك في لازمِه وهو أنّه لا يُفلتُهم؛ أيْ: في الحالةِ الّتي لا يُستطاعُ التّغلّبُ عليها[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ في ﴿فَلَمَّآ﴾:

سُرعةُ أَيمانِهم رغمَ تغليظِها بالمواثيقِ، دليلٌ على شِدّةِ حاجتِهم للمِيرةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ حرفُ عطفٍ[2] يفيدُ التّرتيبَ والتّعقيبَ؛ أمّا التّرتيبُ: فقد رتّب ما بعدَه على ما قبْلَه؛ أيْ: رتّبَ إعطاءَ العهدِ من قِبَلهم على طلبِه من أبيهم، وأمّا التّعقيبُ: فللدّلالةِ على سرعةِ إجابتِهم؛ إذ سارعوا إلى تقديمِ المَوثِقِ رغمَ تغليظِه وشدّتِه عليهم بمجرّدِ موافقةِ أبيهم، وفي هذا إشارةٌ إلى صدْقِهم وشِدّةِ حاجتِهم للمِيرةِ.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ في السّياقِ:

إشهادُ يعقوبَ الله على أَيمانِ أبنائِه المُوثّقةِ، زيادةُ احتياطٍ في حفْظِه

عبّرَ القرآنُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ بجملةٍ شرطيّةٍ علّقتْ وقوعَ أمرٍ وهو قولُ يعقوبَ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ على أمرٍ آخرَ وهو إتيانُهم بالعهد المؤكَّد: ﴿ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنّ يعقوبَ كان يترصّدُ وينتظرُ أيمانَهم الموثّقةَ ليقولَ مؤكِّدًا ميثاقَهم أكثرَ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وذلك زيادةُ احتياطٍ في حفظِ بِنيامين.

دَلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الشّرطِ وجوابِه ماضيًا:

تحقّقَ الإتيانُ بالموثِقِ منهم جميعًا، فتحقّقَ الإشهادُ عليه بقولِ يعقوبَ

أداةُ الشّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هي (لَمّا) ظرفٌ للزّمان الماضي بمعنى (حِين)؛ لأنّ الجملتَيْن بعدها فعلُهما ماضٍ، وقد ذهبَ النُّحاةُ إلى أنّ الشّرط يُفيدُ الاستقبالَ وإنْ كان فعلُه ماضيًا، ولا يُفيدُ الشّرطُ المُضيَّ، وما ورد من ذلك مؤوّلٌ، والصّوابُ: أنّ الشّرط قد يأتي للمُضيّ[3]، وقد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/321 - 13/19.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/20.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/63.

أتى هنا للدّلالة على الزّمن الماضي، وغرضُهُ؛ الدّلالةُ على تحقُّقِ وقوعِ هذا الحدثِ بطرفَيْه؛ لأنّ الآية نزلتْ بعده، والدّلالةُ على وقوعِ الحدثِ؛ وهو إعطاؤهم العهدَ المؤكّدَ جملةً واحدةً[1].

سِرُّ الإضافةِ في ﴿مَوْثِقَهُمْ﴾، في مقابلة التّنكيرِ ﴿مَوْثِقًا﴾:

الموثِقُ المُفخّم، لائِقٌ بنبيّ الله يعقوبَ

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ الموثِقَ حين طلبه منهم في قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾؛ تفخيمًا لهذا الموثِقِ الرّبّانيّ، في حين عرّفه بالإضافةِ إلى أبنائه في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾؛ لأنّ فيه حكايةَ الأوّل[2]؛ أيْ إنّه معروفٌ لديهم؛ إذِ النكرةُ إذا أُعيدتْ معرفةً كان الثّاني عينَ الأوّل[3]، ويكونُ القرآنُ بذلك جمعَ بين غرضَيِ التّنكيرِ والتّعريف، بما يجعلُ الكلامَ أكثرَ فصاحةً وبلاغةً. كما أنّه أضافَ المَوثِقَ لأبنائه وإنّما هو مَوثِقُ يعقوبَ، والأصلُ إضافتُه إليه؛ ليُفيدَ أنّهم آتوه موثقَهم اللّائقَ بيعقوبَ عليه السلام[4].

سِرُّ التّعبيرِ بمَقولِ قولِه جملةً اسميّةً:

تأكيدٌ للميثاقِ بإشهادِ الله بينه وبينَهم

قصدَ يعقوبُ بالجملةِ المعبّرة في قوله: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، بعد أنْ أخذَ على أبنائه الميثاقَ توكيدَ هذا الحَلِفِ؛ أي: الميثاق، وذلك بتذْكيرهم بأنَّ اللّه تعالى رقيبٌ على ما وقَعَ بينهم[5]، وعرْضَ ثقتِه باللّه، وحثَّ أبنائه على مراعاة ميثاقِهم[6]، وحضَّهم على وجوبِ الوفاء[7]، ولذا استعملَ القرآنُ لبيانِ ذلك الجملةَ الاسميّةَ الّتي تُفيد الثّباتَ وقوّةَ الحكمِ وبقاءَه، والمعنى: اللّه تعالى على ما نقول أنا وأنتم وكيلٌ؛ أيْ: مُطّلعٌ ورقيبٌ وشهيد، وموكولٌ له هذا العهدُ، فإنْ وفّيتم به

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/62.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/396.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 861.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/396.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391.

جازاكم بأحسنِ الجزاء، وإنْ غدرتم فيه كافأكم بأعظمِ العقوبات؛ أيْ: سيُجازي الأوفياء خيرًا، وسيُجازي النّاقضين لعهودهم بما يستحِقّون من عقاب[1].

مجيء المُسنَدِ إليه بلفظ الجلالة:

الميثاقُ الّذي يكونُ الله رقيبًا عليه ميثاقٌ عظيمٌ

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالمُسنَدِ إليه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، بالاسْمِ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لتقريرِ وتأكيدِ عظَمةِ هذا الميثاقِ الّذي أخذه يعقوبُ على أبنائه، فهو ميثاقٌ ربّانيٌّ، واللّه الّذي له جميعُ صفاتِ الكمال رقيبٌ عليه، والميثاقُ موكولٌ إليه؛ لأنّ "وكيل فعيلٌ بمعنى مفعول"[2]؛ أيْ: هو القادرُ على الوفاءِ به المرجُوُّ للتّصرّف فيه بالغِبطة، لا أنتم[3].

الغرَضُ من تقديمِ المجرورِ على الخبرِ في الآية:

تقديمُ العهدِ المؤكَّدِ، يُبرزُ زيادةَ العنايةِ بحفْظِهِ والوفاءِ به

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ﴾ على الخبر ﴿وَكِيلٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أيْ لم يَقُل: اللّه وكيلٌ على ما نقول؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وهو العهدُ المُؤكَّدُ والمُوثَّقُ باليمين، الّذي أخذه عليهم، وتشويقًا للمُؤخَّرِ وهو رقابةُ اللّه لهذا الميثاق، بما يقتضي زيادةَ العنايةِ بحفظِ هذا العهدِ والوفاءِ به.

سِرُّ التّعبيرِ بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

العهدُ موثقٌ تكمنُ عظمتُهُ في كونِهِ تحتَ سُلطةِ اللهِ سُبحانه ورقابتِه

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ الّذي يُفيدُ الاستعلاءَ المجازيَّ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ ليُكنّي به في الآية عن تمكُّنٍ من رقابةِ اللّه وشهادتِه من هذا العهدِ المؤكَّدِ الّذي أخذه يعقوبُ على أبنائه، وهذا فيه زيادةُ توكيدٍ لعِظَمِ هذا العهد؛ لأنّ شهادةَ اللّه ورقابتَه، استعلَتْه وأحاطتْ به، فلا يخرجُ عنها.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/156.

دَلالةُ ﴿مَا﴾ بين المصدريّةِ والموصوليّةِ:

بـيـانُ عـظَـمـةِ رقابةِ الله، على الميثاقِ المأخوذِ عليهم

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ تحتملُ وجهَيْن: **الأوّل**: مصدريةٌ، و﴿مَا﴾ وما بعدها بتأويلِ مصدرٍ في محلّ جرٍّ بعلى، والتّقديرُ: اللّه وكيلٌ على قولنا[1]، **والثّاني**: اسمٌ موصولٌ بمعنى: الّذي، والعائدُ إلى الموصول ضميرٌ محذوفٌ منصوبُ المحلّ؛ لأنّه مفعولٌ به. التّقديرُ: اللّه وكيلٌ على ما نقولُه[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿نَقُولُ﴾:

مَـوْثِـقٌ صورتُه حـاضـرةٌ أمـامَ أعـيـنِـهـم، تُـحـفّـزُهم على عـدمِ الإخـلالِ بالعهد

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المضارعِ، في قوله: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الّتي تفيدُ الاستقبالَ؛ لاستحضارِ صُورَة العهدِ، والّذي يؤدّي إلى تَثَبُّتِهم، ومُحافظتِهم على تَذَكُّرِه ومُراقبَتِه[3]، بما ينعكسُ على المحافظةِ على أخيهم بِنيامين، وعدمِ كسْرِ قلبِ أبيهم.

لطيفةُ الوقفِ على قوله ﴿قَالَ﴾:

الـوقـفُ عـلـمٌ نبيلٌ، يُـؤْمَـنُ به مـنَ الـوقـوعِ في الخطأِ الجليل

معرفةُ الوقْفِ والابتداءِ والقطْعِ والاستئنافِ علمٌ نبيلٌ يُؤْمَنُ به منَ الوقوعِ في الخطأ الجليلِ، ولذا يُوقَفُ على وقفةٍ لطيفةٍ على ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ لِئلّا يُتَوهَّمَ أنَّ الفاعلَ لفظُ الجلالة؛ أيْ: (قالَ اللّه)، وإنَّما الفاعلُ هو يعقوبُ عليه السلام[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أرسلَ) و(بعثَ):

الإرسـالُ توجيهٌ بـرِفـقٍ وتُـؤدةٍ، والـبـعـثُ إثـارةٌ واندفاعٌ وإيقاظٌ

يتقاربُ لفظا (أرسل، بعث) إذْ يشتركان في معنى لُغويٍّ عامٍّ وهو التّوجيهُ، كما أنّه قد يُستعملُ كلٌّ منهما بمعنى الآخَر[5]؛ إذ أحدُ

(1) المُنْتجَب الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/609.
(2) عبد الواحد صالح، الإعراب المُفصَّل لكتاب الله المُرَتل: 5/340.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.
(4) الشّوابكة، غُرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن، ص: 132.
(5) الكفويّ، الكُليّات، ص: 244.

معاني الإرسالِ هو البعثُ[1]، وأحدُ معاني البعثِ هو الإرسالُ، إلّا أنّهما يفترقان ببعضِ الملامحِ المُميّزة لكلٍّ منهما، ومن هذه الفروق ما ذكره العسكريُّ، إذ قال: "الفرقُ بين البَعْث والإرسال: أنّه يجوزُ أَنْ يُبْعَثَ الرّجلُ إلى الآخر لحاجةٍ تخصّه دُونك ودون المبعُوث إليه، كالصَّبِيِّ تبعثُه إلى المكتبِ فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أَرْسلتهُ؛ لأنّ الإرْسَال لا يكونُ إلّا برسالة، وما يجْري مجْراها"[2].

بالإضافة إلى أنّ الإرسال يتميّزُ بملمحِ الرّفقِ والتُّؤَدة والسّهولة؛ إذ إنّ أصلَ (رسل) يدلُّ على الانْبعاثِ والامْتدادِ، والرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[3]، والرِّسْل: الرِّفْقُ والتُّؤَدةُ، والإرْسالُ: الإطْلاقُ، والإهمالُ، والتَّخْلِيَةُ، والتّوجيه[4]، والإرْسَالُ: في المَحْبوس إطْلاقه، وفي المُطلق بَعثُه[5].

بينما يتميّزُ البعث بملْمحِ الإثارةِ والاندفاعِ والإيقاظ، إذ إنّ أصلَ (بعث) يدلُّ على الإثارة[6]، والتّوجيهِ، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلافِ ما عُلّق به، فبَعَثْتُ البعير: أثرتهُ وسيّرتُه، وبعثَ اللّه الموتى: أخرجَهم وسَيَّرهم إلى القيامة، وبعثَ رسولًا: أرسله ووجّهه[7]، وانْبعثَ الشّيءُ: اندفعَ، وبعثهَ من نومه: أيقظهُ وأهَبَّه، والبعثُ: النُّشور[8].

كما أنّ الإرسالَ قد يكون من حبْسٍ وإمساك، بينما البعثُ لا يكون من حبسٍ وإمساكٍ.

(آتى) و(أعطى):

لا يكادُ اللُّغويّون يُفرّقون بين الإيتاءِ والإعطاءِ؛ إذ يُعرّفون الإيتاءَ بالإعطاءِ، ويَستعملون أحدَهما مكانَ الآخَر، إلّا أنّه عندَ إمعانِ النّظرِ

الإيتاءُ فيه قوّةٌ فلا يَتوقّفُ على قَبولٍ، والإعطاءُ لا يكون إلّا بمحْضِ التَّفَضُّلِ

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعيُن النّواظر، ص: 151.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (رسل).
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 152.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(7) الرّاغب، المُفردات: (بعث).
(8) ابن سِيده، المُحكَم والمُحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

في معانيهما، واستعمالِ القرآن لهما تتبيّنُ بعضُ الفروق الدّقيقةِ بين اللّفظيْن، وإيضاحُ ذلك من خلال الآتي:

أوّلًا: أصلُ الإيتاء يدلُّ على مَجيءِ الشَّيْءِ وإِصْحابِهِ وطاعَتِهِ، والأَتْوُ: الاستقامةُ في السَّيرْ والسُّرْعةِ، والإِيتاءُ: الإِعْطاءُ[1]، واشتُهِرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاءِ، وأصلهُ الإحْضارُ[2].

ثانيًا: وأصلُ الإعطاءِ يدلُّ على أخذٍ ومُناوَلةٍ، والعَطْوُ: التّناولُ باليد، والمعاطاةُ: المناولةُ، والتّعاطي: تناولُ ما ليس لهُ بحقّ، يُقال: فلانٌ يتعاطى ظُلمَ فلانٍ[3].

ثالثًا: الإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيّةِ، إذ أصلُهُ التّناولُ، وفيه دليلٌ على التّملّك، بينما الإيتاءُ يكونُ في الأشياءِ الماديّةِ والمعنويّةِ.

رابعًا: الإيتاءُ قد يكونُ واجبًا وَقد يكونُ تَفَضّلًا، بخِلافِ الإعْطاءِ فإنَّه لا يكونُ إلّا بمحْضِ التَّفَضُّلِ[4].

خامسًا: الإيتاءُ أقوى منَ الإعطاءِ؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يُقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يُقال: أتاني فأتيتُ، وإنّما يُقال: أتاني فأخذتُ، والفعلُ الّذي له مطاوع أضعفُ في إثباتِ مفعولهِ من الّذي لا مطاوعَ له[5]، لذلك استعملَ القرآنُ الإيتاءَ دون الإعطاءِ للأشياءِ العظيمة، مثل (المُلك والحكمة والسّبع المثاني والقرآن العظيم).

وقيل: الإعطاءُ أَقْوَى من الإيتاءِ، ولذا خَصَّ في دفْعِ الصَّدَقاتِ الإيتاءَ ليكونَ ذلك بسُهولَةٍ من غيرِ تَطَلّعٍ إلى ما يَدْفَعه، والكَوْثَرُ لَمَّا كانَ عَظيمًا شَأْنُهُ غيرَ داخِلٍ في حيطَةِ قدْرَةٍ بَشَريَّةٍ اسْتُعْمِل الإعْطاءُ فيه[6].

سادسًا: الإيتاءُ في أَكثر مَوَاضِعِ الْقُرْآن فيما لَهُ ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمةِ والسّبعِ المَثاني، والملكِ الَّذِي لَا يُؤْتَى إِلَّا لذي قُوَّة، والإعطاء: فيما ينْتَقلُ منه بعد قَضَاء الحاجة منه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتو).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عطو).
(5) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/85.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).

كإعطاء كلِّ شَيْء خلْقَه لتكرّر حُدُوث ذلك بِاعْتِبَار الموجودات، وإِعْطاء الكَوْثَر للانتقال مِنْهُ إلى ما هُوَ أعظمُ مِنْهُ[1].

ونخلصُ إلى أنّ الإيتاءَ: يكونُ مع الأشياءِ الماديّةِ والمعنويّةِ، ولا يدلُّ على التّملّك، وغالبًا يكونُ للشّيء العظيم، وفيه قوّةٌ فلا يتوقّفُ على قَبولٍ، وقد يكونُ واجبًا وقد يكون تفضّلًا.

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»